بقلم: احمد بهاء الدين

مع بداية الأسبوع الثالث للقتال

تدخل حرب أكتوبر 1973 اليوم أسبوعها الثالث 0 وأول ما يخطر على البـال قـول موشى ديان كما سمعته بإذنى يوم 7 أكتوبر حين قال "يومان لصد الهجوم المصرى السورى، ثم يومان يكتمل خلالهما استدعاء الاحتياطى الإسرائيلى، ثم يومان لإنهاء القتال!"

أى ستة أيام أخرى، لا أكثر ولا أقل وأيضاً، فى نفس اليوم، سـمعت جولـدا مـائير تعزف على وتر آخر، موجه هذه المرة للعالم الخارجى " نحن ندافع عن أنفسنا00 أنهـم هـم المعتدون، ونحن لا نريد إلا السلام" 00 فاسرائيل سنة 1967 وجدت فى إغلاق خليج العقبـة بضع ساعات سببا كافياً لشن الحرب، ولكنها لا تجد فى احتلالها لاراضى ثلاث دول عربية، وتشريد مليون عربى آخرين، ورفض كل الضغوط الدولية من أجل السلام، سببا لأن يحارب العرب

أما والحرب تبدأ اسبوعها الثالث، فلا أظن أن هناك شيئاً يستطيع أن يضيفه كاتب إلى شعور أى مواطن:

لقد كان لابد مما ليس منه بد! كان لابد مهما كانت النتائج أن تعرف اسرائيل ويعرف العالم أن أرضنا لها ثمن باهظ، سوف نظل ندفعه حتى نستردها0

والإتفاق شامل بين كل المعلقين والمحللين فى مختلف انحاء العالم : أن أى عمل تقوم به اسرائيل لا يمكن أن يلغى أثر التغير الذى حدث : حتمية السيطرة الإسرائيلية على العـالم العربى تحطمت 0 واسطورة عجز العرب – الأيدى – عن استخدام أدوات العصـر الحـديث حتى الحربى منها، لم تعد واردة0

يبقى أن يعرف هذا العرب جميعا! بمعنى أن يعرفوا أن مردود هـذا التحـول لـيس مقصورا على دول المواجهة وحدها وليس مقصوراً على اسـترداد أو فقـدان قطعـة مـن الأرض0 ولكن مردوده يشمل كل حياة العرب وكل مصالح العرب وكل مستقبل العرب فـى

هذا العالم الذى تعاد صياغته لقرون طويلة مقبلة، بالتطور الاقتصادى والعلمى والاجتماعى تارة، وبالصراع أو الوفاق السياسى تارة، وبالدم والحديد والنار تارة أخرى0

ولنحاول استعراض كل قضايا العرب حدود متنازع عليها00 جزر تائهة 00 ثورات طبيعية لا تهدأ حولها حرب الأسعار آمال فى التنمية والتقديم، أموال سائلة فى بحار من المضاربات الدولية 00 أن ما يحدث فى الجبهة ينعكس على هذا كله : بالفارق بين أمة يعاملها العالم معاملة المهزوم المذعن وأمة يعاملها العالم معاملة الند0

وفى هذا المجال لابد أن يقال أن أى ثروة أو سائل خام ليس أغلى من الدم ولابد أن يقال أن المساهمات الرمزية لم يعد لها مجال0

ولابد أن يقال أيضاً أن كل شىء فى الحياة قد يمكن معالجته أو التعامل معه بنصف مجهود، أو نصف قلب، ما عدا الحرب الحرب جوهرها هو كيف يستطيع أمة أن تضع فيها "كل شىء" من طلقة الرصاص إلى لقمة الخبز إلى دقيقة العمل إلى كفاءة العقل، وبالسرعة اللازمة0

فالشعار الذى يجب أن يرفعه كل قطر محارب، وتفرضه على نفسها الأمة العربية جمعاء هو : الكل 00 والآن قواتنا المسلحة تعطى "الكل 00 والآن!" 00 فهل تعطى أمتنا هذه المعركة البطولية التاريخية: الكل 00 وبدون تأجيل؟

الوقت فى الحرب ليس من ذهب أنه من دم0

قال الرئيس أنور السادات فى أهم خطاب له، فى أهم يوم فى حياتنا "أننى أفضل احترام العالم ولو بغير عطف، على عطف العالم إذا كان بغير احترام !"

وليس هناك أصح من هذا الكلام ليس فى باب الكرامة والكبرياء فحسب ولكن فى باب المصلحة أيضاً! أن عطف العالم لا يعطى شيئاً فى حين أن الإحترام هو الذى يعطى الكثير!

وهنا يجب أن يكون هذا الآن واضحاً هذه المرة للعالم الخارجى!

هناك "أصدقاء" ليس لديهم مانع أبداً من أن يربتوا على أكتافنا، ويخففوا مـن آلامنـا، ويصدروا التصريحات فى تأييدنا، وربما أعطوا أيضاً أصواتهم لنا فى المحافل الدولية 00 ما دمنا الطرف الأضعف، لكن هذا لن يحل لنا قضية، فى حين أنه يضمن لهم مصالحهم الحيوية لدينا0

هؤلاء الأصدقاء، فيهم الدول، وفيهم الأحزاب، وفيهم الكتـاب والصـحفيون ! مـاذا يضيرهم أن يشتروا ما لدينا بالعطف، فى حين أن قلوب بعضهم ليست – فى أعماقها – مـع حقوقنا، وعقلهم الباطن يخشى انتصارنا؟

الكثيرون اتقنوا فن معاملتنا على هذا النحو طوال سبع سنوات تقريباً

ولهؤلاء يجب أن نقول أن هذه ساعة الحسم والصدق!

وقد خانت البعض مشاعرهم بالفعل، فوجدناهم يتوجسون النصر العربى 00 لأن الأمة العربية – بموقعها ومساحتها وثروتها وتراثها- يمكن أن تكون ماردا يحسب لمسـتقبله ألـف حساب0 وهو حساب يؤرق بعض هؤلاء من "أصدقاء العطف" الذين يرغب "لا شعورهم" فى أن تظل علاقتهم بنا علاقة الغنى بالفقير لا بأس لديه أن يتصدق عليه بالعطف، ولكنه لا يتقبل بعد فكرة أن يكون شريكا له على نفس القدم من المساواة!

من أخطر آثار الأسبوعين الماضيين والأسابيع المقبلة: أن مزيداً من الناس فى العـالم بدأوا يشعون أن المستقبل العربى يمكن أن يكون حقيقة!

سياسة الوفاق الدولى دائماً وعبر التاريخ، هدف للقوى الكبرى فـى أى عصـر، إذا اقترنت بعجز كل منها عن تدمير الأخرى000

وعلى الأقل منذ فشل سياسة فوستر دلاس فى احتواء روسيا ثم "ردها إلـى الـوراء" على حد تعبيره، ثم منذ سحب الصواريخ السوفيتية من كوبا فى تلك المواجهة الخطـرة سـنة 1960، وروسيا وأمريكا تعملان بشدة للوصول إلى صيغة وفاق00

وكان لابد أن يمر هذا الوفاق عبر قضايا بالغة الخطر ومشحونة بإمكانيات الإنفجار: الموقف فى أوروبا ومشكلة ألمانيا بالذت – وتحديد الأسلحة الذرية – حرب الهند الصـينية –

مكان العملاق الصينى من خريطة العلاقات الدولية – موازنة المصالح الاقتصـادية للـدولتين العظميين فى أماكن شتى من العالم – والشرق الأوسط بمركزه الحساس0

ووصلت محاولات الوفاق الى قمتها بعد رحلتى نيكسون إلى الصين وروسيا والتوصل إلى اتفاق فيتنام 0 والأعتراف بدولتين المانيتين ودخولهمـا الأمـم المتحـدة ثـم الإتفاقـات الاقتصادية الكبرى المباشرة بين الدولتين ، وأن كانت ما تزال معلقة بسبب اعتراضات كثيرة داخل أمريكا، بعضها من اليمين الأمريكى التقليى الذى يراها تقوية لروسيا، وبعضـها مـن الليبراليين بسبب تأييدهم لإسرائيل ورغبتهم فى ربطها بالتأثير علـى موقـف روسـيا نحـو اسرائيل والهجرة اليهودية 0

ولكن كل دارس للسياسة يعرف أن الأحـداث الدوليـة لا تعـرف "المطلـق" أبـداً0 خصوصا فى عالم اليوم المتشابك المعقد، الذى مهما بلغت فيه قوة الدولتين العظميين، فهما لا تستطيعان السيطرة تماماً على كل ما يمكن أن يحدث فى العالم 0 لم يعد العالم كما مهملا كما كان فى لعصور القديمة يكفى أن تتهادن الأمبراطوريتان الرومانيتان لكى يسود السكون فـى العالم0

وحتى قبل بدء حرب أكتوبر فى الشرق الأوسط بدأ من يقولون بأن سياسة الوفاق وهم قصير العمر0 وأنها خلقت لكل دولة من الدولتين العظميـين مـن المشـاكل مـع حلفائهـا وخصومها أكثر مما حلت من مشاكل 0 ألا نرى أوروبا تتململ وتعيد بحـث موقفهـا؟00 ألا نرى اليابان تغير من كثير من اتجاهات عملها؟ ألا تستمر الحرب فى كمبوديـا؟ 00 أليسـت الصين تعود إلى تذمرها وتحفظاتها ونقدها للدولتين معا؟00 أليس ما حدث فى شيلى بكل عنفه ساحة أخرى للصراع؟ 00 ثم أخيراً تنفجر حرب خطيرة فى الشرق الأوسط؟00

أن الخلاصة من هذا كله واضحة:

1 – القوتان العظميان لهما تأثيرهما الأكيد على ما يجرى فى العالم، تأثير بقوى احياناً حين يتفقان ويضعف حين يختلفان لأن اتفاقهما ليس كاملاً، ولا يمكن أن يكون كاملاً ذات يوم أبداً0

2 – أن الإرادات المحلية لها دور كبير تلعبه وتؤثر به على أقـدار نفسـها00 أى أن أمامها ساحة كافية للحركة ، وأن الكثير يتوقف على تصميمها وعلى خلق واقع يـؤثر علـى مواقف وسياسات القوى الكبرى ذاتها 00

فلا مجال للإستسلام أمام بديهية غير حقيقية وهـى أن الوفـاق قـاطع، والرضـوخ لمتطلباته حتمية00

أليس قرار العبور التاريخى فى 6 أكتوبر 73، وما خلقه فعلا من واقـع جديـد فـى الشرق الأوسط، اسطع الأدلة على ذلك؟

www.anwarsadat.org